مجلـــة الإيسيسكو

ثقـــافية فصليـــة شـــاملة | العدد 4 ◆ أكتوبر 2025

الإيسيسكـو في دمشق

د. علي بن تميم
نحتاج للمزيد من الفهم والاستيعاب للمفاهيم النقدية الحديثة

بغداد في عيون الرحالة

بلاريجيـــا
مدينة تـسكنهـا الـذاكرة

المنظمات والتعليم
في ضوء توجهات الأمم المتحدة

السرديات وسؤال الهوية
ملف العدد

التراث المغربي
بعيـون إسبانـية

من الحوار بين الحضارات
إلى الدبلوماسية الحضارية

الإيسيسكو
والذكـاء الاصطناعي

www.alukah.net

مخطوطات

مخطوطٌ فقدَه مؤلِّفُه

الاستمساكُ بأوثق عُرْوة في الأحكام المُتعلِّقة بالقَهْوة

لابنِ الطيِّبِ الفَاسِيِّ «ت 1170هـ»

د. أحمد عبد الباسط

خبير بمركز الخط والمخطوط في الإيسيسكو

مصر

أبـو عبـد الله محمَّـدُ بـنُ محمَّـدِ بـن الطيِّـبِ الشرقـيُّ الفاسـيُّ، أحَـدُ أفـذاذِ المغـربِ العربـيِّ فـي القـرن الثانـي عشر الهجـري. وُلِـدَ بمدينـة فـاس أوائـلَ القـرن الثانـي عشر الهجـري «1110هـ»، وتلقَّى بها تعليمَه الأوَّل بين أحضانِ أُسْرَتِه العَالِمة؛ فوالـدُه محمَّـدٌ الطيِّـبُ «ت قبـل 1144هـ» مِـن جُملـةِ شُـيوخِه؛ سـمعَ منـه جملـةً مِـن المُسـلسلاتِ الحديثيـة التـي ذكرَهـا ولـدُه ابـنُ الطيِّب فـي فهرسِه الصغير «إرسال الأسانيد»[1]، كمَا استجازَ له - وعمرُه سنتانِ - مِـن مُسْـنِدِ الحجاز آنـذاك أبـي الأسرارِ حسـنِ بـنِ عليٍّ العُجَيْمـيِّ «ت 1113هـ»، وفـي ذلـك يقـولُ تلميـذُه محمـد مُرتضى الحُسيني الزَّبيـديُّ «ت 1205هـ» فـي «ألفيـة السَّـنَدِ»:

وصَـحَّ أنَّ حَسَـنَ العُجَيْمِـي أجَـازَهُ كُتْبًـا بِغَـيْرِ ضَيْـمِ[2]

وعمَّتُـه الزَّهْـراءُ بنـتُ محمَّـدٍ زوجـةُ أبـي علـيٍّ الحسَـنِ بـنِ مَسْعُودٍ اليُوسـيِّ «ت 1102هـ»، تتلمـذَ لها ورَوَى عنها بعـضَ المُسَلسلاتِ الحديثيَّةِ التي أوردَها فـي كتابِه «عُيون المـوارد السَّلْسـلة»، منهـا: المُسَلسـلُ الأوَّل الخـاص بحديـث الرحمـة، الـذي يرويـه عنها وعـن والـدِه أيضًـا، ووصفَها بقولـه: «عمتنـا الشـيخة التقيّـة المسـندة المُقرئـة الزهـراء بنـت محمـد»[3]. وقـالَ عنها فـي المُسَلسل الثاني والأربعين الخاص بالشعراء: «عمَّتي الشيخة البرَّة التقيَّة البارعـة فـي الفنـون»[4].

أمَّـا جَـدُّه لأبيـه أبـو عبـد الله محمَّـدُ بـنُ موسـى فقـد كانَ - كما ذكرَهُ حفيـدُه - عَالِمًا صالحًا أديبًا بارعًـا[5]. كما كانت لأختِه آمنـةَ «المدعـوة: منَّانـة، أو: يَامْنـة» بين أهـل فـاس سِيرَةٌ حميـدةٌ، فقـد ترجـمَ لهـا الكتَّانـي فـي **«سـلوة الأنفـاس»**، فقـال: «المـرأةُ السـالكةُ الصالحـةُ الخيِّرةُ المُفْلِحـة، الناشـئةُ مِـن صغرهـا فـي طاعـةِ الله، والمقبلـةُ علـى شـؤونها كُلِّهـا آمنـة، المدعـوَّة منَّانـة، بنـت السـيد الطيـب بـن محمـد الشرقـي الفاسـي، أخـت العلامـة اللغـوي الأديـب أبـي عبـد الله محمـد... كانـت مِـن العابـدات الذاكـرات العارفـات، المعرضـات عـن الدنيـا وأهلهـا وزينتهـا»[6].

نشـأ ابـنُ الطيِّـبِ الفاسـيُّ فـي جـوِّ هَـذِه الأُسْـرَةِ العَالِمـة، فوجـدَ نفسَـه مُحاطًـا بتقاليـدَ علميَّـةٍ مُتـوارثةٍ، وعـاداتٍ فـي التربيَّـةِ والسُّـلوكِ والتديُّـنِ، فتأثَّـرَ بذلـك تأثُّـرًا كبيرًا، وكانَ لِزَامًـا عليـه اتِّبـاعُ تلـك الخُطـى العِلْميَّـةِ التـي فتـحَ عينَيْـه عليـه، فأخـذَ يطلـبُ العِلْـمَ بجـدٍّ فـي مدينـةِ فـاس وغيرِهـا مِـن مُـدنِ العِلْـمِ المغربيَّـةِ. حتـى أطلَّـت سـنة 1139هـ، فرأينـا فيهـا

1 إرسال الأسانيد وإيصال المصنَّفات والأجزاء والمسانيد، الصفحات: 92، و95، و103، و104، و114، و122، و146، و149.

2 ألفيَّة السند، ص 104

3 عيون الموارد السّلسلة، لوحة 8

4 عيون الموارد السّلسلة، لوحة 34

5 إرسال الأسانيد، ص157

6 سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بِمَن أُقبر من العلماء والصلحاء بفاس 3: 66- 67

> **صرَّحَ ابنُ الطيِّب بأنَّ الصياغةَ الأولى لهذه الرحلة قد سُرِقت وهو في طريقِ عَوْدته إلى فاس في مكانٍ يُدْعَى «مغارة شُعيب»**

عالمًـا موسـوعيًّا، لـه مؤلفـاتٌ وتلاميـذُ ومريـدون، وأشـعارٌ ومُـراسلاتٌ وأجوبـةٌ؛ ممـا يـدلُّ علـى أن الـفترةَ الأولـى مِـن حياتِـه كانـت حياةَ جِـدٍّ وعملٍ وتحصيلٍ، فما كان ليصلَ إلى مكانتِـه تلـك بـغيرِ كبيرِ عنـاءٍ، كما يُـشير إلى ذلـك فـي قَوْلـه:

يومًا بفاسٍ وفي «مكناسةٍ» زمنًـا وتـارةً في زوايـا العـمِّ والخـالِ

وبُرْهـةً سفـري «صفـرو» وآونـةً «تازا»، وطَوْرًا أُرَى أفلي الفَلا الخالي[7]

وفـي السَّـنةِ نفسِـها ـ أعنـي: 1139هـ ـ تاقـت نفسُـه إلـى السَّـفرِ نحـو المَشْرقِ بعامـةٍ، وبلادِ الحجـازِ بخاصَّـةٍ؛ إذ كان المشرقُ - مِـن وجهـةِ نَظَـرِه - ملتقًـى للعلـمِ والعُلمـاءِ، ومنْـهَلا عَذْبًـا للاستزادةِ مِـن الخبراتِ، وسـبيلًا لانـطلاقِ شُـهْرَتِه وذُيـوعِ صِيتـه، وهـو مَـا عبَّر عنـه بقولـه:

وأَرْجـعُ مملـوءَ الحَقَـائِبِ عـامرًا
بِمَا شِئْتُ مِن عِلْمٍ وحِلْمٍ ومَا ومَا

وتَخْدمُنـي الدُّنيـا وأُصْبِحُ في غَدٍ
لَدَى رُتْبَةٍ شَمَّاءَ في مَنْزِلٍ سَمَا[8]

إذا أَضَفْنَـا إلـى ذلـك تلـكَ النشـأةَ الدِّينيَّـةَ الصوفيَّـةَ التـي نشـأَ عليهـا ابـنُ الطيِّـبِ بين أُسرتِه أوَّلًا، ثُـمَّ تَلْمذَتَه لِعُلمـاء الزوايـا الصوفيَّـةِ وشُـيوخِها، أمثـال: شـيخَيْه ابـن المَسْـناويِّ «ت 1136هـ»، وابن الشَّاذليِّ «ت1137هـ» وَرِيثي الزاويـة الدِّلائيـة بفـاس، وأحمـدَ بـن نـاصرٍ الدَّرعـيِّ «ت 1129هـ» شـيخِ الزَّاويـة النَّاصريَّـةِ = فإنَّنـا سـوفَ نُـدْرِكُ تمامًـا تلـك اللَّوْعـةَ وذلـك الشَّـوْقَ إلـى زِيـارةِ بيـت اللهِ الحـرامِ والوقـوفِ أمـامَ القـبرِ الشَّـريف، وهـو مَـا عبَّر عنـه فـي مواضـعَ كـثيرةٍ مِـن رحلتِـه الحجازيَّـة التـي وصلـت إلينـا.

7 إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس 1: 25

8 الرحلة الحجازية، ص177

رحـلَ ابـنُ الطيّـبِ الفاسـيُّ إلـى الـمشرقِ لأوَّلِ مـرَّةٍ فـي رحلتِـه الحجازيَّـةِ الأُولى، التي استغرقت ستةَ عشرَ شـهرًا، بـدأت بالخُـروجِ مِـن مدينتِـه فـاس صبيحـةَ يـوم الأربعـاءِ، الرابـعَ مِـن رجـبٍ الفَـرْد سـنة 1139هـ، وانْتَهـت بالرجـوعِ إليها صبيحـةَ يـوم الثلاثـاء، السَّـادسَ مِـن ذي القَعْـدةِ سنة 1140هـ. وقـد أبقى لنا الزَّمانُ نسُخةً خطيَّةً فريدةً مِـن هـذه الرحلـة الحجازيَّـةِ9، سـجَّلَ فيهـا ابـنُ الطيِّـب الفاسـيُّ مُذكّراتِـه اليوميَّـة التـي تضمَّنـت الحديـثَ عَـنِ البُلْـدانِ التـي مَـرَّ بهـا، وتضاريسِـها، وعـاداتِ أهْـلِ الـمَشْرِقِ، وذِكْـرِ مَـنْ لقيهـم مِـن الأعلامِ والعُلمـاء، ومَـا نظمَـه وألَّفَـه فـي المُناسباتِ المُختلفةِ.

النـوازلِ، وفِـي ضمـنِ ذلـك أبياتٌ كانَ يَقْتَضِيهـا الحـال، وقصائـدُ شرَّفْناهـا بذكـر تلـك المحـال، وفوائـدُ مُهمَّـةٌ يَعْتَنِـي بهـا ذو الهِمّـةِ. **فاسـتولتْ علـى ذلـك كلِّـه يَـدُ الضيـاعِ، وسَرَقَهـا سَـارِقٌ مـع مَـا كان لدينـا مِـن كُتـبٍ ومتاعٍ**... وحيثُ أَلْقينَـا عصـا التَّسْـيار، واسـتقرَّت بِنَـا مِـن الحجـازِ فِـي مصر الديـارُ - طلـبَ منَّـا بعـضُ مَـن يجـبُ علينـا إسـعافُه وموافقتُـه أنْ نَسْـتجمَّ القريحـةَ الجامـدةَ، ونسترجـعَ الفكـرةَ الخامـدةَ؛ لعلَّهـا أنْ تتلافَـى بعـضَ مَـا تلاشَـى مِـن تلـك الرِّحْلـةِ البديعـة، وتقصـدَ مِـن كلِّ مقصـدٍ عجيبـةً وبديعـة. فاعتـذرتُ، فأبـى أنْ يقبـلَ الاعتـذارَ، **ثـم أجبتُـه بعـد الاسـتخارةِ عَلـى مَـا بـي مِـن الأَعْـذارِ، مُسْـتعينًا بقـوّةِ مَـنْ لـه القـوةُ والحـولُ**، مستمدًّا مِـن فضلِ مَالِـكِ الفضلِ والطَّـوْلِ»[11]. ويقـولُ فـي موضعٍ آخـر: **«ولمَّـا أَشْرَفنَـا علـى مَغـارةِ شُـعَيب** أردنـا زيارتَهـا، وكانَ معنـا الفقيـه الخيِّرُ المُسِـنُّ أبـو العبـاس أحمـد الطيلوني، فتذاكرنـا معـه فـي ذلـك..... وفـي تلـك اللَّيْلـةِ ظَهَـرَ فضـلُ اللهِ علينـا وبَانَ، وعَلِمْنـا أنَّ اللهَ تعالـى تقرَّبَ مِنَّا القُرْبان؛ **إذ فِيهـا سُرِقَ لنـا الخُـرْجُ بما فيه، وضاعت لنـا تلـك الرحلـةُ البديعـةُ** التي لا يُستكملُ بليغ وَصْفِها ولا يستوفيه، **مـع غيرِهـا مِـن الكتـب القديمـةِ والحادثـةِ»**[12].

ومِـن تلـك المُؤلَّفاتِ التي صنَّفَها ابنُ الطيِّبِ الفاسيُّ وفقدَها فـي رحلتِـه تلـك، مؤلَّـفٌ أسْـمَاهُ: **«الاستمسـاكُ بأوثـق عـروة فـي الأحـكام المُتعلِّقـةِ بالقَهْـوة»**. وكان الدافـعُ لتأليفِـه هذا المؤلَّـفِ أنَّـهُ لمَّـا دخل مصرَ فـي رِحْلةِ ذهابِـه إلى الحجاز ضيَّفَـه أحدُهم بأنواعٍ مِن الأطعمةِ، ثُـمَّ أحضرَ شرابَ القهوةِ، «التي لا يعرفُها المغاربةُ، ولا يعدُّونَها في الأطعمةِ، ولا في الأَشْرِبة، ولا في الأدويةِ ولا في المُشْتهيات»[13].

و«القَهْـوةُ» لفظـةٌ عربيَّـةٌ لا شُـبْهةَ فـي فَصَاحتِهـا، علـى زِنَـة «فَعْلـةٍ»، تُطْلَـقُ فـي أَصْلِهـا علـى الخَمْـرِ، التـي سُـمِّيت بذلـك - كما نـصَّ الخليـلُ «ت 170هـ» لأنَّها «تُقْهِي الإنسانَ، أي: تُشْـبِعُه،

«القَهْوةُ» لفظةٌ عربيَّةٌ لا شُبْهةَ في فَصَاحتِها

وتُمثِّـلُ هـذه النُّسـخةُ الخطيَّـةُ الفريـدةُ مِـن الرحلـةِ الصياغـةَ «التسجيلةَ» الثانيةَ منها؛ إذ صرَّحَ ابنُ الطيِّب نفسُه بأنَّ الصياغةَ الأولى لهـذه الرحلـة قـد سُرِقـت وهـو فـي طريـقِ عَوْدتِـه مِـن المدينـةِ المنـوَّرةِ، فـي مـكانٍ يُدْعَـى «مغـارة شُـعيب»[10] فطلـبَ منـه أحـدُ الأصدقـاء وهُـو بـمصرَ إعـادةَ كتابتِهـا مـع تذكُّـر مـا يمكـنُ أنْ يتذكَّـرَه، فشرعَ فـي إعـادة كتابتهـا عـام 1140هـ، وزادَ عليها ما تضمَّنَتْه الرحلةُ مِن أحوال السَّفرِ إلى فاسٍ بعد أداء الحجِّ. يقـولُ ابـنُ الطيِّـب: «وكُنَّـا جَمَعْنَـا فـي طريقِنـا نُبْذَةً تحتوي علـى مَـا سَـلَكْنَاه مِـن المَرَاحـلِ، وتَعُـدُّ مَـا نَزَلْنـاه مِـن المنـازلِ، وتشـتملُ عَلـى ذِكْـرِ مَـن لقينـاهُ أو تكلَّمنـا معـهُ فِـي نازلـةٍ مِـن

9 تحتفظ بها مكتبة جامعة «لايبسك» Leipzeg الألمانية، تحت رقم «476»، وتقع في «134» لوحة. وقد نشرها نور الدين شُوبد في طبعةٍ أولى عن دار السويدي، بأبي ظبي، سنة 2014م. هذا، ولابن الطيب رحلة ثانية إلى الحجاز لم يُدوِّنها، كانت سنة 1143هـ، وهي التي أدَّت بها إلى المُقام بالمدينة المنورة والوفاة بها عام 1170هـ.

10 تُعرف اليومَ بـ «البِدْع»، وهو وادٍ ذو مياه متدفقة عذبة شديدة البرودة. معجم معالم الحجاز، ص1628؛ والرحلات المغربية والأندلسية، ص322. ويبدو أنَّ هذا المكانَ كانَ معروفًا بقُطَّاعِ الطُّرق مِن قبل؛ فقد ذكرَه العَبْدريُّ «ت بعد 700هـ» في رحلته، التي بدأها عام 688هـ، وأشارَ إلى أنَّه كان يوجدُ قريبًا منه قبْرُ الشَّفَّافِ، وهو رجلٌ كان يسكنُ هنالك، ويقطعُ على الحُجَّاج، فلا يكادُ يسلمُ منه أحدٌ. رحلة العبدري، ص-341 342

11 الرحلة الحجازية، ص-98 100

12 الرحلة الحجازية، ص509

13 الرحلة الحجازية، ص299

وتَذْهبُ بشَهْوةِ الطَّعَامِ»[14]، أو أنَّها مُشتقَّةٌ مِن «الإقهاء»، ومعناهُ: «الإقعادُ؛ لأنَّها تُقْعِدُ عَنِ النَّومِ»[15]. ثُمَّ ما لبثت أنْ أُطلقت في المُعجماتِ المتأخِّرة كـ «تاج العروس»، للزَّبيديّ «ت 1205هـ»، لتدلَّ - أيضًا - على «مَا يُشْربُ - الآنَ - مِن البُنِّ لثمرِ شَجرٍ باليَمَنِ، يُقْلَى على النَّارِ قليلًا، ثُمَّ يُدَقُّ ويُغْلَى بالماءِ»[16].

وقد أثارَ شرابُ قَهْوةِ البُنِّ، ومَا ارتبطَ به مِن عاداتٍ اجتماعيَّةٍ ومجالسَ، جدلًا قديمًا بينَ العُلماء في حِلِّ ذلك الشرابِ أو تحريمِه، وإنْ كانَ أكثرُهم مائلين إلى الإباحة، ونُظِمَت فيها القصائدُ، وذهبَ بعضُهم إلى المُغالاةِ في مَدْحِها وتعظيمِ فوائدها، ورأوا أنَّ شُرْبَها قُربةٌ إلى الله، وذكرُوا أنَّ «البُنَّ شجرةٌ في الجنَّةِ، غَرَسَها سبعون ألف مَلَكٍ، تُسَمَّى «شجرة السُّلوان»، فلمَّا أهبطَ اللهُ آدمَ هبطَ بها معه... ورماها في هذه الأرضِ، وهي أرضُ زَيْلع الحبشَةِ»[17]، بينما بالغَ آخرون في ذَمِّها، حتى ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ شاربَها «يُحْشَرُ يومَ القيامةِ ووجهُه أسودُ مِن قُعورِ أوَانيها»[18]، وأفتى آخرُون بتحريمِها وإغلاق الحوانيت التي تُبَاعُ فيها، مثلما كان بمكَّة أيَّام الشيخ شمس الدين محمد الحنفيّ، نقيب قاضي القضاة؛ الذي تزعَّم مجلسَ الفقهاء الذين أَغْرَوا مُحْتَسِبَ مكَّة خاير بك «ت 922هـ» بتحريمِها وَرَدْعِ مَن يقولُ بحلِّها، ورفَعَ محضرًا بذلك إلى السُّلطانِ المملوكي قنصوه الغوري «ت922هـ»؛ ثم بمصرَ أيَّام الشيخِ أحمد بن أحمد بن عبد الحقِّ السُّنباطيِّ «ت 995هـ» الذي أفتى بتَحْريمِها ومَنْع شُربها؛ تبعًا لأبيه الذي بنى فتواه عام 939هـ على شهادةِ طبيبَيْنِ أعجميَّيْنِ قدما مِن الحجازِ إلى مصرَ؛ الأمرَ الذي أثارَ غضبَ الناسِ واستياءَهم، حتى قال أحدُهم في الأوَّل:

قَهْوَةُ البُنِّ حُرِّمَتْ فَاشْرَبُوا قهوةَ الزَّبِيبْ
ثُمَّ طِيبُوا وعَرْبِدُوا وانْزِلُوا في قَفَا الخَطِيبْ

وقالَ آخر في الثاني:

حَرَّمُوا القَهْوَةَ عَمْدًا قَدْ رَوَوْا إفْكًا وبَهْتَا
إنْ سألْتَ النَّصَّ قَالُوا: إنَّ عبدَ الحَقِّ أَفْتَى[19]

14 معجم العين «هـ. و. ق. هـ. و» 4: 64
15 عمدة الصفوة في حل القهوة، ص180-181؛ ومعجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية 5: 171
16 تاج العروس «ق. هـ. و» 39: 371
17 مقدمة في فضل البن «مخطوط»، 49ظ
18 عمدة الصفوة في حل القهوة، ص179
19 عمدة الصفوة في حل القهوة، ص197؛ ومعجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية 5: 172-173

استنهضَ كلُّ ذلك هِمَّةَ ابنِ الطيِّب الفاسيّ؛ وأرادَ أنْ يُدْلِيَ بدَلْوِه في هذا المِضْمَارِ، فصرَّحَ في «الرحلة الحجازيَّة» بتأليفِه هذا المؤلَّفَ **«الاستمساك بأوثق عروة في الأحكام المُتعلِّقةِ بالقَهْوة»** عند وُرودِ سؤالٍ بشأنها في الحرم المكّي، كما نصَّ في الرحلةِ نفسِها على ضياعِه مِن جُملةِ ما ضاعَ مِن كُتبِه بالمكان المعروفِ بـ «مغارةِ شُعيبٍ». يقول: «وقد كانَ وردَ عليَّ ونحنُ في الحَرمِ الشَّريفِ سُؤَالٌ يتضمَّنُ أبحاثًا نَفِيسةً تتعلَّقُ بالقهوةِ وأحكامِها، **فجمعتُ في ذلك تأليفًا مستقلًّا حافلًا، سمَّيْتُه: الاستمساك بأوثقِ عروةٍ في الأحكام المتعلّقةِ بالقهوةِ**، ورتّبتُه على مُقدِّمةٍ وأربعةِ فصولٍ وخاتمةٍ. وأبديتُ فيه مِن نَفِيسِ الأبحاثِ ودقيقِ الأنظارِ مَا يشهدُ بتحريرِه عندَ مُشَاهدتِه جميعُ النظَّارِ، **فعَدَا عليه ذلكَ السَّارقُ، وأخذَه في ما أخذَ مِن القراطيسِ والمهارقِ. تقبَّلَه اللهُ على التَّلفِ، وعوَّضَنا فيه وفي غَيْرِه خيرَ خَلَفٍ»**[20].

20 الرحلة الحجازية، ص301

ولئن فُقِدَ هذا النصُّ الذي تأثَّر مؤلِّفُه كثيرًا بفَقْدِه وغَيْرِه مِن القصائدِ[21] التي أنشدَها، والمسائلِ التي دوَّنها = فقد احتفظت لنا الرِّحْلةُ بآثارةٍ منه، ومُوجَزٍ عنه، وقد سَلَكَ فيه صاحبُه مَسْلكًا وسَطًا:

فقد بدأ كلامَه عن القهوةِ بإيرَادِ كلامِ داود بن عمرَ الأنطاكي «ت 1008هـ» في «تذكرته» عَنِ البُنِّ، من جِهَةِ البُرودةِ واليبوسة، وفائدتِه في «تَجْفيفِ الرُّطوبات، والسُّعالِ البَلْغميِّ، والنَّزلاتِ، وفَتْحِ السُّدَدِ، وإدْرَارِ البَوْل»، وأنه إذا حُمِّصَ وطُبِخَ بالماء فإنَّه «يُسكِّنُ غليانَ الدَّمِ، وينفعُ مِن الجُدريِّ والحَصْبَةِ»[22].

> **كان الدافعُ لتأليفِ ابن الطيب هذا المؤلَّفِ أنَّهُ لمَّا دخل مصرَ في رِحْلةِ ذهابِه إلى الحجاز ضيَّفَه أحدُهم بأنواعٍ من الأطعمةِ، ثُمَّ أحضرَ القهوةَ، «التي لم يكن المغاربةُ يعرفونها، ولا يعدُّونَها في الأطعمةِ، ولا في الأَشْرِبة، ولا في الأدويةِ ولا في المُشْتهيات»**

ثُمَّ أوردَ كلامَ بعضِ العُلماء في أنَّ القَهْوةَ تَحْرُمُ على مَنْ طَبْعُه السَّوْداءُ، وتُكْرَهُ على مَن طَبْعُه الصفراءُ، فصحَّحَ ذلك، وذكرَ أنَّ ذلك يَنْطبقُ - أيضًا - على «غيرها مِن أنواعِ المَطْعُوماتِ والمَشْرُوبات؛ يحرمُ تناولُ ما يضرُّ منه على مَنْ علمَ أنَّه يضرُّهُ، ولا يكونُ ذلكَ موجِبًا لتحريمِه مُطلقًا كما لا يَخْفى»[23]، ودلفَ بعدَها في إيرادِ كلامٍ طويلٍ لأبي سالم العيَّاشي «ت 1090هـ» في رحلتِه الحجازيَّة، المعروفة بـ «الرحلة العيَّاشية»، صدَّره برأيه الوسطيِّ في أنَّها إنَّما تحرمُ في حقِّ مَنْ يشربونها في أماكنَ «قلَّما تَخْلُو مِن لهوٍ، وحضورِ مَن لا يحلُّ حضورُه مِن الجَوَاري ومَنْ في معناهم مِن المُرْدِ، مع آلاتِ الطَّربِ والغِنَاء، فهؤلاء الحاملُ لهم على شُرْبِها اتِّباعُ الأهواء، والتلذُّذُ بما قارنَها مِن الأُمورِ المذمومةِ»[24].

وختمَ ابنُ الطيِّبِ كلامَه عن القهوة - استنادًا لما نقلَه عن أبي سالم العيَّاشيِّ وغَيْرِه مِن كلامِ الفُقهاء - بأنَّ حِلَّيتَها صريحةٌ مِن عمومِ قَوْلِه تعالى: (قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا)، الآية [الأنعام، آية 145]، «فقد قرَّرَ أهلُ الأصولِ أنَّها دليلٌ على أنَّ أصلَ كلِّ مَطْعُومٍ مِن نباتٍ وغيرِه الحِلِّيَّةُ، إلا ما استثناهُ اللهُ تعالى، أو أدَّى إلى عُذْرٍ في عَقْلٍ أو بدنٍ»[25].

وبعدُ؛ فهذا ما يمكنُ تلمُّسُه ممَّا أوجزَه ابنُ الطيِّب الفاسيُّ في رحلتِه الحجازية، عن كتابِه المفقود «الاستمساك بأوثق عروة في الأحكام المُتعلِّقة بالقهوة»، وقد أشارَ في الرحلة - كما سبق - إلى أنَّه رتَّبَه «على مُقدِّمةٍ، وأربعةِ فصولٍ، وخاتمةٍ»، لا نعلمُ يقينًا عُنواناتِها، لكنَّ أُلْفَتَنا بتلك الشخصيَّةِ العبقريَّة ومؤلَّفاتِها تدفعُنا إلى القَوْلِ بأنَّ كتابَه المفقودَ هذا قد تناولَ الموضوعاتِ التالية:

1. **التأصيل اللغوي للفظ «القهوة» ومُسمَّياتِها**؛ فالمؤلِّفُ ذو خلفيَّةٍ لُغويَّةٍ أصيلة، وكانَ أحدَ المُحشِّين على «قاموس» الفيروز آبادي، بكتابه «إضاءة الراموس وإضافة النَّاموس على إضاءة القاموس».
2. **المؤلَّفات السابقة عليه التي أُلِّفَت في القهوة**؛ لقولِه: «وقَدْ ألَّفَ فيها جماعةٌ مِن أهل مصر والقاهرةِ والحرمَيْنِ والشَّامِ وغيرِهم مؤلَّفاتٍ عديدةً، وقفتُ على جُلِّها، وأثْبَتُّ خُلاصتَها في ذلك الكتاب».

21 يقول في رحلته الحجازية، ص99، متأثِّرًا، والضميرُ في «لينه» يعودُ على السارق:
فيَـا لَيْتَه لَوْ رَدَّ مِنْهـا قَصِيـدةً وسامحتُه في المَالِ أَجْمعَ والكُتْبِ

22 الرحلة الحجازية، ص300-301

23 الرحلة الحجازية، ص301

24 الرحلة الحجازية، ص301-302، والنصُّ منقول عن الرحلة العياشية 1: 236

25 الرحلة الحجازية، ص310-311

3 **فوائد القهوة ومنافعها، وما ينبغي أنْ يُؤكل معها لحصول المنافع الناشئة منها وتجنُّب ضررها؛** فقد صدَّرَ كلامَه عنها، بما أورده من كلام داود بن عمر الأنطاكي «ت1008هـ» في تذكرته، كما ردَّ على بَعْضِ ما أوردَه عبدُ القادر بن محمد الجزيري «ت نحو 977هـ» في قصيدةٍ له بشأن منافعِها أو شربها على هيئة مخصوصةٍ، من خلال كلامٍ لداود الأنطاكي أيضًا.

4 **ما قيلَ في القهوة مِن قصائد وأشعار ومُساجلات بين الأدباء؛** وهو أمرٌ ظاهرٌ في ما أوردَه ابنُ الطيِّب في هذا الموجزِ - على صِغَرِه - مِن قصائد أشعارٍ لرضيِّ الدين ابن الحنبليِّ «ت 971هـ»، وابن عراقٍ الحنبلي «ت963هـ»، وعبد القادر بن محمد الجزيري «ت نحو 977هـ»، إضافةً إلى تلك الذائقة الأدبية التي طغت في كثيرٍ مِن مؤلَّفاته.

5 **حكم شراب القهوة، وما قيل فيها من الأسئلة والأجوبة؛** وهو الغرضُ الرئيسُ مِن تأليفِه الكتاب، وذلك حينما وردَ عليه وهو في الحرم الشريف - كما يقول - «سؤالٌ يتضمَّنُ أبحاثًا تتعلَّقُ بالقهوةِ وأحكامِها»، كما مرَّ.

ختامًا، كم مِن نُصوصٍ فَقَدَتْها حضارتُنا الزَّاهيةُ في أتُون الفِتَنِ والصِّرَاعاتِ والسَّلْب والنَّهْب لا نعلمُ عنها شيئًا..! وكَم هي تلك المُخبَّأة في خِزانَات المخطوطات، تنتظرُ مَن يكشفُ الغُبارَ عَنْها، ويُعِيدُها إلى الحياةِ، ويُقدِّمها للقارئ المُعاصر في أبْهى صورة..!

> **كم مِن نُصوصٍ فَقَدَتْها حضارتُنا الزَّاهيةُ في أتُون الفِتَنِ والصِّرَاعاتِ والسَّلْب والنَّهْب لا نعلمُ عنها شيئًا...! وكَم هي تلك المُخبَّأة في خِزانَات المخطوطات، تنتظرُ مَن يكشفُ الغُبارَ عَنْها، ويُعِيدُها إلى الحياةِ**

ثبتُ المصادر والمراجع

- **إرسال الأسانيد وإيصال المصنَّفات والأجزاء والمسانيد**، لابن الطيب الفاسي «ت1170هـ»، تحقيق: عثمان لمبركي، ولحسن إبورك. أطروحة لنيل درجة الإجازة «-2005 2006م»، بكلية الآداب والعلوم، جامعة ابن زهر، أغادير.
- **إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس**، لابن الطيب الفاسي «ت1170هـ»، تحقيق: عبد السلام الفاسي، والتهامي الراجي الهاشمي. المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1983م.
- **ألفيَّة السَّنَد**، للزَّبيدي «ت 1205هـ»، تحقيق: محمد بن عزوز. بيروت: دار ابن حزم، ط1. 2006م.
- **تاج العروس**، للزَّبيدي «ت1205هـ»، تحقيق: عبد الستار فرَّاج وآخرين. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، -1965 2001م.
- **الرحلة الحجازية**، لابن الطيب الفاسي «ت1170هـ»، تحقيق: نور الدين شوبد. أبو ظبي: دار السويدي، ط1. 2014م.
- **رحلة العَبْدري** «ت بعد 700هـ»، حققها وقدَّم لها: علي إبراهيم كردي. دمشق: دار سعد الدين، ط1. 2011م.
- **الرحلة العياشية**، لأبي سالم العياشي «ت1090هـ»، حقَّقها وقدَّم لها: سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي. أبو ظبي: دار السويدي، ط1. 2006م.
- **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بِمَن أُقبر من العُلماء والصلحاء بفاس**، لمحمد الكتاني «ت1345هـ»، تحقيق: حمزة الكتاني، وآخرَيْن. الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1. 2004م.
- **عمدة الصفوة في حل القهوة**، لعبد القادر الجزيري «ت نحو 977هـ»، تحقيق: سلفستر دي ساسي «ضمن كتابه: الأنيس المفيد للطالب المستفيد»، باريس، 1806م.
- **عيون الموارد السَّلسلة مِن عيون الأسانيد المُسلسلة**، لابن الطيب الفاسي «ت1170هـ»، مخطوط بالمكتبة الأزهرية «283 مصطلح حديث / 23006».
- **معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية**، لأحمد تيمور باشا «ت1348هـ»، تحقيق: حسين نصار. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية «مركز تحقيق التراث»، ط2. 2002م.
- **معجم العين**، للخليل بن أحمد الفراهيدي «ت170هـ»، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي. القاهرة: دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- **مقدمة في فضل البن**، لعلي بن محمد الأجهوري «ت1066هـ». مخطوط بدار الكتب المصرية «73 مجاميع»، ص49و - 50و.

انضموا إلينا
JOIN US !
REJOIGNEZ-NOUS